المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 6

البحث اللساني والسيميائي

4-3-2 رجب 1401 / 7-8-9 ماي 1981

المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 6

البحث اللساني والسيميائي

4-3-2 رجب 1401 / 7-8-9 ماي 1981

الأخضر بوجمعة (*)

مفهوم «اللغة» في البحث اللساني العربي المعاصر

نظرا للالتباس الذي يحيط بكلمة «لغة» فإني أود في بداية هذا العرض أن أشير إلى أني أضع مفهوم «اللغة» جانب مفهومي «الكلام» و«اللسان» فإذا كان «الكلام» هو الاستعمال الحقيقي للغة انسانية ما ، فان «اللغة» هي البنية التي ينبثق عنها «الكلام» ، على أن «اللسان» هو البنية التي تنتظم في اطارها كل اللغات الانسانية . هذا ويلزم التنبيه إلى أني أنطلق في عملي هذا من الفرضيات الآتية :

1 — ان الطابع العلمي للسانيات مرتبط باشكالية موضوع البحث .

2 — ان موضوع دراسة اللسانيات هو اللغة الواحدة .

3 — ان البحث اللساني العربي على غرار معظم البحوث اللسانية الأخرى ، عليه أن يُعنى بدراسة اللغة الأقرب اليه ، أي اللغة العربية .

انطلاقا من هذا ، ارتأيت تقصي مفهوم «اللغة» في البحث اللساني العربي المعاصر حتّى تتأتى معرفة مدَى هذا البحث وابعاده ، ولكن قبل هذا سأقوم بطرح اشكالية البحث اللساني بهدف الاستئناس بالمشكل المطروح .

ا) اشكالية البحث اللساني :

من الافكار المتداولة بشأن لسانيات القرن العشرين انها تختلف عن لسانيات القرن التاسع عشر بكونها بحثا تزامنيا أي سنكرونيا ، وعن ممارسات الاقدمين بانها

(*) كلية الآداب — الرباط

بحث وصفي لا معياري ، وبالتالي علمي . غير أن هذه الطريقة المقتضبة في التعريف تجعلنا ننسَى أن القطيعة الواقعة بين لسانيات القرن العشرين والمحاولات التي سبقتها لا تكمن في الأخذ بوجهة نظر تزامنية ووصفية ، بل في الاهتمام البالغ باشكالية موضوع البحث . وهذا ما يشير إليه «بنفنيست» في احدَى كتاباته حيث نقرأ: «ان التغيير الذي عرفته اللسانيات يرجع بالتدقيق إلى ما يلي : لقد أُقرّ بان اللسان يجب أن يوصف بكونه بنية صورية بيد أن هذا الوصف يتطلب قبل كل شيء تحديد طرق ومعايير ذات كفاية ، وبمعنَى آخر فان واقع الموضوع غير منفصل عن المنهج المستخدم لتحديده»[1] .

وهكذا يظهر ان لسانيات القرن العشرين تختلف عن البحوث التي سبقتها باقرارها ان موضوع بحثها ، أي اللسان ، ليس شيئا مسلما به ، وانما هو تركيب . فالباحث يعلم ان موضوع دراسته ، وان كان يتراءى له في شكل أصوات وكلمات وجمل ، فهو يبقَى أبدا ذا طابع صوري ، تجريدي . واذا كان مفهوم «الحقيقة» قد ينصرف إلى معنيين : الحقيقة كتطابق مع الواقع ، والحقيقة كوحدة داخلية متماسكة ومنسجمة ، فان الباحث يهدف إلى الوصول إلى هذا النوع الأخير من الحقيقة . فهو وان كان يصبو إلى ان يكون وصفه لموضوعه مطابقا قدر الامكان للواقع ، فهو يهدف أولا وقبل كل شيء إلى أن يكون وصفه منسجما ومتماسكا ، علما منه بان الواقع لا يظهر في شكل ما إلا انطلاقا من منظور ما . فالموضوع لا تحدد معالمه إلا انطلاقا من ممارسة تقص ما . وحيث أن الاحاطة الشاملة والكاملة بكل تلك المعالم مستحيلة التحقيق فإن كل موضوع يصبح مشروعا[2] ومعنَى هذا أن الحقائق التي يتوصل إليها الباحث ليست ثابتة بل متغيرة ، فهي تختلف حسب النظريات .

وحتَّى يتسنَّى للباحث أن يعطي وصفا علميا لموضوعه عليه في هذه الحالة ان يحدد منطلق تقصيه ، والنظرية التي يبني عليها جهازه الواصف ، وكذا المنهج المتبع للوصول إلى الوصف الذي يقترحه لموضوع بحثه . هذا وتجدر الاشارة إلى ان الباحث يمكنه الأخذ بالمنهج الاستقرائي أو المنهج الاستنباطي . بيد انه لا يستطيع الالتزام باحد هذين المنهجين دون الآخر . فهو ، وان كان يعطي الاسبقية للمنهج الاستنباطي

(1) (F. Benveniste « Problèmes de Linguistique Générale » (I) Ed. Gallimard 1966, p. 119)
(2) (G. Bachelard « Nouvel Esprit Scientifique » 13è Ed. P.U.F. 1975 p. 15).

ايمانا منه بان موضوع دراسته تركيب لا شيء مسلم به ، فهو لا ينسَى ان على جهازه الواصف أن يستمد صلاحيته من التعليمات اللغوية الملاحظة .

استنادا إلى ما سبق ، يمكن القول بصفة مجملة ان الباحث يعتبر أن عمله يتحدد حسب ثلاث مراحل : 1) المرحلة القبنظرية (أي ما قبل النظرية) 2) المرحلة النظرية 3) مرحلة الوصف . هذا وان كان الباحث في مرحلة التنظير يهتم بكفالة النظرية وبساطتها ووضوحها وتماسكها ، فهو في المرحلة الأولى يعمد إلى تحديد هدف تقصيه وآفاق ما يعتبره موضوع دراسته ، وذلك بضبط المبادئ التي تؤسس بحثه . تمشيا مع هذا ، يجد الباحث نفسه أمام عدة اختيارات إذ بإمكانه أن يوجه عمله نحو دراسة لغة واحدة أو نحو دراسة عدة لغات . كما يمكنه توجيه دراسته حسب وجهة نظر تزامنية أو تعاقبية . ثم ، حتَّى لو اختار دراسة لغة واحدة في إطار تزامني فهو يبقَى ملزما بتبيان موقفه من علاقة اللغة المدروسة من جهة واللغات الأخرى من جهة ثانية ، علاقة اللغة المدروسة من جهة والمجتمع والفرد من جهة أخرى .

لقد حاول معظم لسانيي القرن العشرين تحديد موقفهم من هذه الأسئلة واختار معظم البنيويين والتوليديين التفريق بين :

1 — موضوع اللسانيات الخاص : أي دراسة اللسان أو اللغات ككل . وموضوع الدراسة ، أي اللغة الواحدة باعتبارها صورة للغات الأخرى .

2 — الهدف البعيد وهو اظهار بنية اللسان ، والهدف القريب وهو اظهار بنية لغة معينة .

3 — المنظور التعاقبي والمنظور التزامني ، مع تفضيل هذا الأخير لأن كل تعاقب يتضمن عدة «تزامنات» .

4 — المنهج الاستقرائي والمنهج الاستنباطي مع اعطاء الأسبقية لهذا الأخير وذلك بسبب طبيعة موضوع الدراسة الذي يبقَى أبدا اشكاليا .

هذا وقد آثر الكثير من اللسانيين الغربيين عدم الاهتمام مؤقتا بدراسة اللغة في ابعادها الاجتماعية والنفسية والثقافية حتَّى تتسنَّى لهم دراسة اللغة بوصفها بنية

صورية ، الشيء الذي مكنهم من تطوير أجهزة واصفة متعددة ، وهذا ما جعل اللسانيات تلعب دورا طليعيا بالنسبة للعلوم الانسانية الأخرى .

انطلاقا من هذا ، يمكن استخلاص النتائج التالية :

1 ــ ان اللسانيات ما كان لها أن تطمح إلى أن تكون علما لو لم تعتبر موضوعها اشكاليا .

2 ــ ان موضوع دراستها الأول هو اللغة الواحدة ، وذلك لأسباب منهجية وعملية .

3 ــ ان الصورة التي تظهر فيها اللغة من خلال وصف الباحث تجد كفايتها في انسجامها مع المعطيات الملاحظة ولكن هذه الصورة هي أولا وقبل كل شيء وليدة نظرية ومنهج ومبادئ .

وهكذا ، تكون اللغة في مرحلة قبنظرية تعريفا مؤقتا وتقريبيا ، وفي مرحلة نظرية بنية صورية ، وفي مرحلة الوصف مجموعة مصطلحات وقواعد واصفة . أما على مستوَى الملاحظة فلا يمكن التحدث إلا عن وجود معطيات لغوية يشترط فيها أن تكون منسجمة ومتكاملة وأن تمثل موضوع الدراسة أحسن تمثيل .

والآن ، وبعد أن تبيَّنت العلاقة الوثيقة بين طموح اللسانيات للعلمية وأهمية اشكالية الموضوع من جهة ، ومكانة مفهوم اللغة أي موضوع دراسة اللسانيات من جهة أخرى ، سأحاول ضبط موقف الدارسين العرب المعاصرين من هذا المفهوم ، الشيء الذي سيتيح الفرصة لمعرفة مدَى مواكبة الممارسة اللسانية العربية المعاصرة للمشاكل المطروحة .

ب) الدارسون العرب المعاصرون ومفهوم«اللغة»

لقد مضَى على أول محاولة لتعريف القارئ العربي باللسانيات بمفهومها الغربي ما يناهز المائة سنة ، ولكن هل يمكن اليوم الاقرار بوجود بحث لساني عربي ؟ ذاك ما سأحاول تقصيه متعمدا تركيز اهتمامي على هذه الممارسة كمحاولة عامة ، تاركا الاشارة المباشرة إلى أعمال هذا الدارس أو ذاك .

إن الكتابات اللسانية المعاصرة تنقسم حسب رأيي إلى ثلاثة أصناف :

1 — تلك التي تهدف إلى إعادة قراءة الدرس اللساني العربي القديم مثل معظم كتابات مازن المبارك ، كمال محمد بشر ، عبده الراجحي ومحمد عبده . هذا وسوف لن أتعرض لهذا النوع من الكتابات لما تطرحه من اشكالية خاصة .

2 — تلك التي تدخل في اطار تعاقبي ، وهي كتابات على عبد الواحد وافي ، ابراهيم أنيس ، صبحي الصالح ، محمد المبارك ، ابراهيم السمرائي ، محمد الأنطاكي ومحمود فهمي حجازي .

3 — تلك التي تدخل في اطار وصفي تزامني مثل كتابات محمود السعران ، ريمون طحان ، أنيس فريحة ، تمام حسان ، كذلك بعض كتابات كمال محمد بشر . هذا وسينصب اهتمامي على هذا النوع الأخير من الكتابات .

ان معظم الدارسين العرب الذين انكبوا على الأعمال اللسانية التاريخية والمقارنة ، اهتموا بالدرس اللساني الغربي على مستوَى النتائج لا على مستوَى الجهاز النظري . وهكذا عمدوا في أغلب الأحيان إلى نقل ما يتداول في الغرب بشأن اللغات السامية عامة واللغة العربية خاصة ، ناسين المشاكل النظرية والابستيمولوجية التي تحيط بهذا النوع من البحث . خصوصا وأن كتابات هؤلاء الدارسين العرب صدرت بعد الاربعينات ، أي في وقت كانت فيه أطروحات لسانيات القرن التاسع عشر قد راجعها وصححها الكثير من الباحثين الغربيين . وهكذا نجد هؤلاء الدارسين ، دون اتخاذ موقف واضح من موضوع دراستهم ، يتحدثون عن تطور اللغة العربية واصفين الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية التي ساعدت على تطورها . أضف إلى ذلك ، أنه يمكن على مستوَى التطبيق ان نلاحظ تناقضا عند الكثير من هؤلاء الدارسين . فهم مثلا يؤكدون على مبدأ تطور اللغات ، ولكنهم عند دراستهم للغة العربية يولون اهتمامهم لتطور هذه اللغة ابتداء مما يعتبرونه تاريخ نشأتها حتَّى فجر الاسلام . اما ما عرفته هذه اللغة من تغير وتطور منذ ذلك العصر حتَّى يومنا هذا ، فلا يتعدَّى في أغلب الأحيان الاشارة إلى الفرق الشاسع الواقع بين اللهجات العربية الحالية واللغة العربية الفصحَى ، أو إلى تبيان ما تبقي من اللغة الفصحَى في اللهجات العامية الحالية . وخلاصة القول فان هؤلاء الباحثين ، زيادة على غياب

الجهاز النظري لديهم وعدم مواكبتهم لما يجدّ في ميدان اهتمامهم فهم على مستوَى التطبيق لم يكونوا أوفياء حتّى إلى المبدأ الذي يؤسس بحثهم ، ألا وهو مبدأ تطور اللغات .

لئن كان الحال على هذا الشكل عند اللسانيين المؤرخين العرب فما الذي يمكن قوله بشأن اعمال الواصفين في اطار تزامني ؟

ان معظم هؤلاء الباحثين يعتبرون ان اللسانيات تهدف إلى وصف اللغة وصفا علميا . اما المنهج الذي يحبذون اتباعه فهو المنهج الاستقرائي ، ذلك ان على الواصف ان يكتفي بملاحظة المعطيات اللغوية في حياد تام . اما اللسانيون الغربيون الذين يعتمدون عليهم بكثرة فهم بلومفيلد ، ادوارد ساپير ، دنيال جونس وفيرث وخاصة هذا الأخير . ومن جهة أخرى ، تجدر الاشارة إلى أن معظم هذا النوع من الكتابات اهتم بالدرجة الأولى بتعميم بعض المفاهيم اللسانية المتداولة بالغرب قبل الخمسينات . بيد أننا نجد كتابات ، وهي قليلة ، تجاوزت مرحلة التعميم وهدفت إلى وصف اللغة العربية . لكن ، هل توصل الباحثون العرب إلى تحديد اللغة العربية على مستوَى الملاحظة وانتاج أجهزة واصفة ؟ هل يمكن القول بان هناك جهازا نظريا مستقيما ، متكاملا ومتماسكا ؟ هل استطاع البحث اللساني العربي اقامة نماذج وصفية ونظرية تمكنه من اغناء البحوث الأخرى بتجربته ؟

لقد رأينا ان البحث اللساني لم يتمكن من أن يتوق إلى العلمية الا بتحديد موضوعه وذلك بايضاح المنطلق والنظرية والوصف . وهكذا ، ولاسباب منهجية ، انكب معظم الباحثين على دراسة لغة واحدة مطورين نماذج وصفية ونظرية وما وراء نظرية وهذا ما اتاح لهم تدقيق معنَى اللسانيات واتجاهها كبحث علمي . اعتمادا على هذا يمكن رسم ابعاد البحث اللساني العربي المعاصر وذلك بالنظر إلى موقف الواصفين العرب المعاصرين من موضوع دراستهم ، أي اللغة العربية .

ج) استنتاجات

من الملاحظ في كتابات الواصفين العرب المعاصرين ان اشكالية البحث اللساني تكاد تكون منعدمة الوجود . فهم لا يحددون أبعاد وجهة النظر التي يؤسسون

تقصّيهم انطلاقا منها . لذا نجدهم يتبنون أطروحات بعض الباحثين الغربيين دون تعليل اختيارهم لها ، فضلا عن أن الكثير منهم يستلهم مادته في أغلب الأحيان من المدرسة الفيرثية موهما قارئه بأن أطروحات هذه المدرسة هي أطروحات البحث اللساني عموما .

ونظرا لغموض وجهة النظر فان النظرية التي قد يتبناها هذا الباحث أو ذاك يغلب عليها طابع التلفيقية وعدم الانسجام ، وهذا ما يؤدي طبعا إلى ارتكاب أخطاء عدة على مستوَى الوصف . وهكذا نجد من بين هؤلاء الدارسين من يعتبر الخفض والرفع وحدتين صوتيتين بيد أنهما علامتا اعراب . وآخر يصف الصوائت العربية تاركا القارئ في آخر المطاف في حلّ من أن يعتبر أن هناك ثلاث أو ست وحدات ، وآخر يحكم على اللغة العربية بالقصور حين لا يجد على مستوَى المعطيات مقابلا لقواعده . أما الأمثلة التي يعطيها هؤلاء الباحثون لاثبات وصفهم فهي في أغلب الأحيان مستمدة من تزامنات مختلفة ومن مستويات لغوية متنوعة ، حتَّى لنتساءل أحيانا عن اللغة التي هم بصدد وصفها .

هذه الفوضَى نابعة ، في نظري ، من غياب موقف واضح مما يسمَى باللغة العربية ، وبالتالي من موضوع البحث اللساني العربي كمحاولة ذات أبعاد خاصة وعامة : فلئن كان الباحث العربي يعتبر أن موضوع دراسته هو اللغة العربية ، فانه على مستوَى الملاحظة لا ينطلق من معطيات لغوية معينة . أما على المستوَى الابستيمولوجي فانه يعتبر ان موضوعه لا يطرح أي اشكال . فاللغة العربية موجودة بوصفها وحدة محسوسة ، وليس على الباحث الا أن ينكب على وصفها معتمدا في ذلك على الملاحظة الحيادية التي تضمن علمية الوصف . وهكذا نجَد في كتابات هؤلاء الباحثين كلمات : علم ، وصف ولغة ، تستعمل وكأن ما تعنيه شيء قار لا يقبل أي جدال . حقا ، ان هؤلاء الباحثين يقومون أحيانا باعطاء تعريفات لبعض هذه المفاهيم ولكن تلك التعريفات تظل أبدا قبنظرية ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تعتبر تعريفات ثابتة . فعلى الباحث اذن أن يقدمها كمفاهيم تتدقق بتقدم البحث بدءا بالمرحلة القبنظرية إلى مرحلة الوصف والتمحيص . اما وان ينطلق الباحث من فرضيات لا تقدم كذلك ، ثم يعمد انطلاقا منها إلى وصف ظواهر

لغوية تُجمع مصادفة فإن موقفا اسقاطيا كهذا هو موقف ايديولوجي أكثر من أن يكون موقفا علميا . ذلك أن الموقف العلمي يستدعي الاقرار بأن الباحث ينطلق من فرضيات يختارها لأنها تمكنه من الوصول إلى انجاز نموذج وصفي يستمد صلاحيته انطلاقا من شروط تمكن من تقويم مدَى كفاية الوصف المقترح لموضوع دراسة البحث . فالبحث العلمي لا يهدف إلى الوصول إلى حقائق ثابتة بقدر ما يسعَى إلى تحديد مناهجه وتطويرها وتعليلها حتَّى يظهر موضوعه كما هو ؛ أي اشكاليا .

وخلاصة القول فان البحث اللساني العربي المعاصر في مجمله ، علاوة على انه لم يتمكن من تحديد المعطيات اللغوية الملاحظة ، لم يستطع تطوير أي جهاز واصف أو نظري . وهكذا ، وانطلاقا من وجهة نظر توليدية يمكنُ القول بأن هذا البحث لم يصل حتَّى إلى كفاية الملاحظة ؛ الشيء الذي يضعه في مرحلة قبنظرية . فاللغة العربية ، في اطار هذا البحث ، تظهر بوصفها مجموعة معطيات لغوية غير محددة ، وموضوعا موصوفا غير واضح ، ونموذجا نظريا ، أقل ما يمكن أن يقال في حقه أنه مبتور ومستعار . ان ما أقول بصدد هذه الممارسة ليس أحكاما بل استنتاجات توصلت إليها انطلاقا من فرضيات شرحتها وعلَّلتها . هذه الاستنتاجات تهدف أولا وقبل كل شيء إلى الاعداد لارضية المناقشة ، وتبادل الرأي لا إلى التأسيس للبحث اللساني العربي ، فحتَّى إذا قصد أحد إلى هذا فان طموحه يبقَى وليد أحلام وهذيان . ذلك ان البحث العلمي عمل جماعي وليس مغامرة فردية لذلك فهو يستلزم الاستفادة من تجارب الجميع وتضافر جهود الجميع .